الفصل الثانى
النهازة الاستعمارية البريطانية
ماكدونالدز – تشرشل

■الدعوى والوسيلة أو الغاية والوسيلة (ماكدونالدز- تشرشل)
■ تشرشل والحرب العالمية الثانية

الدعوى والوسيلة أو الغاية والوسيلى(ماكدونالدز- تشرشل):
- وقد درجت انجلترا على ذلك فكانت تدعى مساعدة نظم الحكم فى الدول التى تنوى السيطرة عليها ولذلك سعت لدى تركيا لرفع غطاء الشرعية عن ثورة عرابى ولدى توفيق لتحطيم الثورة نفسها وكذلك نزعت فى فرض الدكتاتور 'فرانكو' على إسبانيا مدى حياته [1] ؛ كما تذرعت بدعوى صيانتها حق مصر فى السودان لذب فرنسا عنه فى الوقت الذى كانت مصر تبوء من السودان بالغرم وتستأثر بريطانيا بالغنم كما ذكر العقاد. وقد ظل هذا ديدن بريطانيا إلى قبيل الحرب العالمية الثانية والتى حتمت ضروراتها هى الأخرى على بريطانيا السماح أو غض البصر عن بعض منافع.

ومع أن خطر الحرب كان هو أيضا الدافع إلى أن تظهر بريطانيا من خلال حكومة 'رمزى ماكدونالد' العمالية ميلا لمنح الهند استقلالها ومنح مصر مزيدا من التساهلات إلا أن المفكر المحافظ الانجليزى كما تمثل فى 'تشرشل' ظل يرى "أن المعارضة التى يمثلها المحافظون يجب أن تقف موقفا صلبا إزاء الحكومات العمالية فى سائر القضايا الداخلية والامبراطورية الجوهرية وأن تخلع(حسب تعبيره) على نفسها أمجاد بريطانيا وعظمتها التى ارتدتها فى عهد اللورد 'بيكونزفيلد' واللورد 'سالسبورى' وأن لا تتردد فى توجيه النقد والاعتراض".

[1] مجلة العربى/ عدد إبريل ١٩٨٢، ص١٧

وجلى أن مثل هذا الأسلوب الفخور هو عين النعرة العنصرية التى يرددها خصوم 'هتلر' وحلفاؤه فإنه ينتقض بما يسوقه تشرشل من أهوال العنصرية الفاشية النازية وغيرها ويفقد مبرره بخسائر الحربين اللتين تحز خسائرهما فى نفسه [1]؛ فلا عجب أن عارض تشرشل حقوق الهند وحقوق مصر فى الاستقلال بنفس الدموية الباردة التى شارك بها مقتبل حياته فى التغطية الصحفية والمشاركة الفعلية فى إبادة المهديين بالسودان وصبغ أرديتهم البيضاء الرامزة بالدم والتراب.

ولا قيمة لحجته القائلة بأنه "سنخسر الهند فى النهاية وأن كوارث لا حد لها ستلحق شعوبها" . ولا لغضبه من إطلاق سراح الزعيم الإنسانى التاريخى الفذ غاندى من محبسه والإتيان به إلى منصة المفاوضات . وهو الغضب الغبى أو المغاضبة المفتعلة التى أظهرها تشرشل لزميله المحافظ 'لورد بلدوين' بسبب هذه القضايا وقدم استقالته من الحكومة على أثرها ومضى يواصل معارضتها وهى ذات أكثرية اشتراكية من مقعده فى مجلس العموم.

وقد تعرفنا على موقف تشرشل من مصر فيما أوضحناه فى بحث آخر

[1] السيد أبى الحسن على الحسينى الندوى/ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الكتاب العربى، بيروت، بيروت، ١٩٦٧م – ١٣٨٧هـ، ص ٢٠٥، ٢٢٤

	من خسائر الحروب عبر العصور					
الحرب	من-	إلى	المدة	قتلى	جرحى	مع	ضد
الإسلام	٢هـ	٩هـ	٨	١٠١٨		٢٥٩	٧٥٩
العالمية الأولى	١٩١٤	١٩١٨	٥	٧٠٠٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠٠٠	[1]	
العالمية الثانية	١٩٣٩				٥٠٠٠٠٠٠٠		
ذرية هيروشيما	٤٩/٨/٦		يوم واحد	٢٠٠٠٠١٠/ ٢٠٠٠٠٤٠[1]			

- وتنظر تعدادات تشرشل خاصة أواخر هذا القسم ، ونجدولها هنا كالتالى:

فى معسكرات الموت الألمانية	٦ أو ٧ ملايين	فائقة مذابح جنكيزخان
ليلة الأمراس الطويلة	٥ أو ٧ آلاف	
فى الجبهة الشرقية	خطط لإبادة شعوب عن آخرها	

من مفهومه لـ "ملنرة" مصر و"بلجرة" الأردن، ويقصد بالأول مفاضات بلا غاية على يد ملنر فى مصر وبالثانية حكما بلا معنى وليس للفظته هذه وجود فى المعجم؛ أما موقف تشرشل من جارته أيرلنا فإنه يستحق أن يذكر فى هذا السياق خاصة.

تشرشل والحرب العالمية الثانية:

ففى مطالع الحرب العالمية الثانية وبعيد غزو هتلر ليوغوسلافيا قد كانت الحكومة البريطانية تدرك ــولات يجديها الإدراك- أن الوقت قد تغير كثيرا عن ذى قبل بحيث لا يمكن المبالغة فى تعزيز عظمة بريطانيا الامبراطورية(وأصبح) كل ما يأمل حزب المحافظين هو أن يكيف نفسه مع القوى اللبرالية والعمالية الجديدة ويضع المناورات والخطط المتحتمة للوصول إلى أكبر عدد من جماهير الناخبين من بين صفوف الأحرار والعمال [١] .

لكن المستر تشرشل وحده عارض هذا وغضب منه كما مر وثبت عليه حتى فيما يخص جارته أيرلندا حين وقع اتفاق فى الخامس والعشرين من إبريل ١٩٣٨م بين الحكومة البريطانية وحكومة "ديثماليرا" فى جنوب أيرلندة يقضى بالإضافة إلى مسائل أخرى بأن تتخلى "بريطانيا العظمى" عن سائر حقوقها فى احتلال ميناءين جنوبيين هما 'كوينزتادن' و 'بيريهافن' لأغراض بحرية وعن سيطرتها على قاعدة 'طوسويلى' .

رفض تشرشل الأخذ بوجهة نظر رؤساء أركان الحرب البريطانيين أو بدليل من قول من يقول إن بريطانيا تغلبت على أزماتها دون هذه الموانئ. بل لم يشف نهمته إلى الاستعمار الفعلى كونه قد كان مقررا عودة بريطانيا إلى احتلال هذه الموانئ بالقوة إذا لم تستطع بريطانيا الوصول إلى غايتها بدونها وحتى تتخلص من المجاعة؛ بل سمى الاتفاق كله إهمالا قصد به الترضية وذكر أنه كان لابد أن ينص فى الاتفاق على "حق" بريطانيا فى احتلال هذه الموانئ من جديد إذا نشبت الحرب ولم يذكر خسائر لأحد إلا بواخر عديدة وأرواحا كثيرة للبريطانيين.

---

[١] مذكرات ونستون تشرشل، ج١، ص٣٢

والحق الذى يبنيه تشرشل فى أراضى الغير على أساس حاجته التى لا يقره عليها حتى ذووه إنما قد بررره لنفسه طالما "كانت الأمور تسير سيرا ناعما مترفقا فى السنوات الست عشرة" السابقة على التخلى عن هذه الموانئ وطالما أن هذه هى "القواعد التى تعتمد عليها مدمراته (للتزود) بالوقود فى رحلاتها غربا فى الأطلنطى لمطاردة الغواصات وحماية القوافل القادمة عند وصولها إلى البحار الشمالية وتوفر عليها مسافة أربعمائة ميل.

وقد ذكر تشرشل أنه سبق أن أقنع مسئولا أيرلنديا بذلك الحق المزعوم لبريطانيا فى أراضيه وذلك حين كان تشرشل وزيرا للمستعمرات [١] .

وليس ذلك إلا من قبيل ذك الإقناع الذى كانت بريطانيا تفرضه على المصريين وغيرهم كما ذكرنا وإن لم تنفع "النعومة" و"اللطف" فى جميع الأحوال. ولا عبرة بقوله : حاجة بريطانيا ومجاعتها وغرق بواخرها فقد تبين لنا أن هذه الخسائر هى فى جملتها جزء من الخسائر التى كانت تنتج عن الأخلاق الاستعمارية/الماكيافيللية فى صورتها التشرشلية قبل أى اعتبار آخر.

وصف ونستون تشرشل الأسلوب الذى ساد الحوار السياسى قبل قيام التطاحن القومى فى أوروبا بقوله: "انقضت أيام معاهدات أوترخت وفيينا حيث كان الأرستقراطيون من الساسة والدبلوماسيون من المنتصرين والمنهزمين يجتمعون ليتناقشوا ويتبادلوا الرأى فى جدال مهذب رقيق لإعادة وضع الأنظمة التى لا يختلفون عليها فيما بينهم على قواعدها" [٢] .

ويفيض تشرشل فى وصف ألمانيا بأنها "أكبر كتلة عنصرية" [٣] وفيما سببته لفرنسا من هزائم وإحباطات خمس مرات فى مدى قرن واحد

---

[١] مذكرات ونستون تشرشل، ج١، ص١٦٨، ١٦٧
[٢] مذكرات ونستون تشرشل، ج١، ص١١، ١٢
[٣] مذكرات ونستون تشرشل، ج١، ص١٤

وذكر خسارة فرنسا لمليون ونصف مليون من أبنائها وخراب مقاطعاتها وكيف "أخذ الشعب الفرنسى بعد أن أعياه النصب و فقد الكثير من أبنائه ينظر إلى المستقبل فى ذهول وعذاب بين الخوف والنكران وكذلك ذكر كيف صارت روسيا تعيش فى خراب وحيرة وقد حالت صورتها فأصبحت لا تمت للماضى بصلة" وهو يقصد تحولها إلى دولة شيوعية .

وكذلك أبرز دور بريطانيا فى تزويد ساحات فرنسا وبلجيكا بالفرق الكندية القوية والوحدات الاسترالية العتيدة والفرق النيوزيلندية الباسلة والقوات الهندية التى حافظت فى شتاء ١٩١٤ القارس على خط دفاع "أرمنتيير" ودورها فى إرسال مليونين أو ثلاثة من الجنود البريطانيين إلى سهول "أرتوا" و "بيكاردى" وإرسال مليونى جندى من زهرة "الشباب الأمريكى إلى حقول "سمانيا" و "أرجواى".

وقد لخص حاجة الدول المنتصرة بعد الحرب الأولى فى كلمة واحدة هى "الأمن" [١] وأورد رأى الجنرال 'فوش' القائد الأعلى للحلفاء وهو فرنسى فيما يضمنه لفرنسا وهو أن تقتطع الأراضى الألمانية الواقعة غرب نهر الراين وتضم إلى فرنسا لتصير الراين لها ردءا وحدا ؛ وأيده تشرشل فى وجهة النظر وإن كانت بريطانيا وأمريكا قد رفضتا ذلك لتأثيره فى الحدود الإقليمية لألمانيا وفضلوا عليه نزع سلاح المنطقة التى تخشاها فرنسا غرب الراين [٢] فلا يبقى لها إلا جيش لأمنها الداخلى٠بوليس) وأن تفرض عليها تعويضات لم يكن بوسع ألمانيا ولا أى شعب فى العالم الوفاء بها بدون ديون من الخارج وقد أرادوا لألمانيا دفع تكاليف الحرب كلها وحدها [٣] . وقد ظل زعماء الغرب يرددون ذلك لجماهيرهم الانتخابية.

وعلى الرغم مما ذكره من محاولات أمريكا وبريطانيا إقراض ألمانيا إلا أنه ظل يرى أن ما فرض على ألمانيا من جزية كان غَبنا أدى إلى

---

[١] مذكرات ونستون تشرشل، ج١، ص١٣
[٢] مذكرات ونستون تشرشل، ج١، ص١٧
[٣] مذكرات ونستون تشرشل، ج١، ص ١٤

"تدهور المارك الألمانى تدهورا سريعا نتيجة انهيار حالتها المالية والاقتصادية ودفعها التعويضات ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٣ مما دفع ألمانيا حين ثار الشعب من جراء احتلال الروهر إلى طبع كميات هائلة من أوراق النقد للقضاء على الأساس النقدى جميعه.. مما ترتب عليه نتائج قاضية وتضخم مالى بعيد المدى فاختفت الأموال التى كانت تدخرها الطبقة المتوسطة ومن ثم انساقت بطبيعتها نحو الحركة الاشتراكية الوطنية وتدهورت الصناعات الألمانية بظهور صور شاذة من الاحتكارات الواسعة. وقد اختفى رأس المال العامل بصفة عامة من البلاد وألغيت أو صفيت سائر القروض الداخلية القومية وديون الصناعة القائمة فى صورة من صور الرهون أو الإتاوات المفروضة على رأس المال.. وأسفرت هذه الأوضاع عن قروض خارجية كبيرة لشعب مفلس٠وهذه فى رأى تشرشل) هى الصورة البارزة التى طغت على ما بعدها فى السنوات التالية وازدادت معها آلام الألمان وحسرتهم يوما بعد يوم" [١] .

وقد ذكر تشرشل صورا للين ذكر أن بريطانيا أظهرته لألمانيا فى هذا الوضع القاسى وذكر إغراق بريطانيا وأمريكا بوارجهما الحربية نزعا للسلاح باعتبار أنه ليس من النبل نزع سلاح المنهزم وحده ولكنه ذكر أن دفع أمريكا البرطانيين إلى إلغاء معاهدتها مع اليابان قد أرى إليابانيين دليلا على امتهان العالم الغربى لدولة آسيوية مما حطم –باعترافه- عدة حلقات كانت لها قيمتها فى تحقيق السلام.

وقد عد تشرشل من عوامل استئناف الحرب تخفيض بريطانيا وأمريكا معدل نمو قوتهما البحرية ورأى فى ذلك "الأوضاع التى خلقها الحلفاء باسم السلام مما مهد الطريق لاستئناف الحرب مضيفا إليها قيام البلشفية فى روسيا وظهور الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا فضاق الحال إبان ذلك فى أوروبا على هذا النحو.

"وفى مدار هذه الأحداث القاتمة وفى غمار هذا الضجيج الذى لا ينتهى من التفاهات ظهر فى أوروبا عامل جديد من عوامل الخلاف أشد بلاء

[١] مذكرات ونستون تشرشل، ج١ص ١٩

من استعمار القياصرة والأباطرة وميولهم الجامحة نحو التوسع وإقامة الامبراطوريات. فقد أدت الحرب الأهلية فى روسيا إلى انتصار الثورة البلشفية انتصارا كاملا..(كما أن) ألمانيا وإيطاليا بدأتا تذعنان لدعاية الشيوعيين ومشروعاتهم. وقد سقطت المجر تحت سيطرة الدكتاتور الشيوعى 'بلاكون' وأخذت الحضارة الأوروبية تترنح وتهتز من أساسها فى السنوات الأولى التى تلت الحرب.

وعن نشأة المذاهب القومية الهدامة من بعضها فالواقع أنها نشأت من المضادة للمذهب الرأسمالى البريطانى العضوض نفسه قال تشرشل: وليست الفاشية فى الحقيقة إلا ظل الشيوعية أو نبتة كريهة أنبتتها و'ذا كانت الفاشية قد نبتت من الشيوعية فقد نبتت النازية من الفاشية.

فبينما كان العريف هتلر يعرض خدماته على طبقة الضباط الألمان فى "ميونخ" لاستثارة الجنود والعمال الألمان نحو كراهية اليهود والشيوعيين انبرى مغامر آخر هو "بنيوتو موسولينى" يدعو إيطاليا إلى نظرية جديدة فى الحكم أساسها إنقاذ إيطاليا من الشيوعية أو ترفعه فى نفس الوقت إلى مصاف الدكتاتوريين.. (وذكر تشرشل) أنه هكذا وقفت هذه الحركات المتماثلة على أقدامها (وقال إنه بذلك) قد قدر لها أن تسوق العالم نحو صراع أشد عنفا لا يستطيع الإنسان أن يدعى أنه انتهى بتحطيمها[1]

ولم يذكر تشرشل فى نفس السياق أن مضادة هذه الحركات لبعضها كان بسبب مطامعها الإقليمية المشتركة فى أقاليم النمسا وفنلندة وغيرها وأن ما سيؤلف بين إيطاليا وألمانيا مثلا هو رغبتهما فى مباراة بريطانيا وفرنسا فى مطامع هاتين الأخيرتين فى أفريقيا وآسيا ؛ وظل يشير إلى مستعمرات بريطانيا بوصفها الشعوب الناطقة بالإنجليزية وما عتم أن حمل ألمانيا وهتلر وحده مفادح الحرب الثانية أيضا.

قال:"أما الحرب الثانية فقد اختفى فيها سائر الروابط الإنسانية التى تصل الإنسان بالإنسان . وقد ارتكب الألمان فى ظل الحكم الهتلرى الذى

[1] مذكرات ونستون تشرشل، ج١ص ٢٠، ٢١

خضعوا له جرائم لا نظير لها فى شدتها واتساع نطاقها والوحشية التى اتسمت بها حتى فى العصور المظلمة فى غابر التاريخ".

ولم يشك " أن المذابح البشرية التى ارتكبت نحو ستة أو سبعة ملايين من الرجال والنساء والأطفال فى معسكرات الموت الألمانية تفوق فى فظاعتها مذابح 'جنكيزخان' القاسية" [1]

لما ذكر تشرشل سلفا من تحول الطبقة المتوسطة إلى الاشتراكية بسبب ما فدحها من فوادح فرضها الغرب المنتصر فى الحرب الأولى أومأ إلى الحرس النازى من أصحاب القمصان السوداء أومأ إلى 'روهم' ممثل الحزب الشيوعى الألمانى وحرسه من ذوى القمصان البنية ومن ثم إلى الصراع بين هتلر ممثل الحزب الاشتراكى الفائز فى الانتخابات بالبطش والخداع وبين فريق الثائرين فى الجيش الألمانى بزعامة 'شلينجر' الذى فاه لسفير فرنسا بأن "أيام هتلر فى الحكم معدودة" وغير ذلك .

وصف تشرشل التصفية التى ابتدأ بها هتلر خصومه جميعا بدافع الفَوْهَة المذكورة ولما وصفه له 'جوبلز' وزير إعلامه بأنه فتنة وشيكة الوقوع كذبه تشرشل فيها . ذكر ما تلا من أوامر هتلر فى هذا الشأن ومنها أوامره لـ 'جورنج' فى برلين وكيف أسفرت حركة التصفية للخصوم عن مذابح دامت أربعا وعشرين ساعة تتغير فيها فرق الإعدام لما يعترى الجنود فيها من الذهول.

عدد ضحاياها فى ألمانيا بـ خمسة آلاف أو سبعة آلاف ومنهم "عدد كبير من الرجال الذين لا علاقة لهم بمؤامرة روهم" . ذكر تشرشل أنهم ذهبوا ضحية الانتقام الشخصى والحزازات القديمة إلى أن عاد هتلر إلى برلين ليوقف المذبحة مقتادا عددا من رجال الحرس الذين دفعهم الحماس البالغ إلى قتل مسجونين أيضا وليعلن انتهاء "ليلة الأمراس الطويلة" التى استطاع فيها هتلر "بسرعته وقسوته" على حد تعبير تشرشل "أن ينقذ

---

[1] مذكرات ونستون تشرشل، ج١ص ٧٢، ٧٣
- وانظر جدولتنا لهذه الأرقام إلى جانب أرقام إحصائية لضحايا للحروب عبر العصور فيما سبق .

حياته وفكرته" "ووحدة ألمانيا الاشتراكية الوطنية" و حسب تعبير تشرشل "تحمل لعنتها إلى العالم" [١]

ذكر تشرشل أنه "قد وضعت الخطط فى الجبهة الشرقية لإبادة شعوب عن آخرها على أيدى الألمان والروس ؛ وهو يقصد شعوب شرق أوروبا التى رغبت فى التخلص من الجهاز الامبراطورى(النمساوى) ومنها المجر وفنلندة وتشيكوسلاوفاكيا. وقد كانت مطمعا لروسيا وألمانيا.[٢]

ثم حمل الألمان تبعة الغارات البريطانية والأمريكية والفرنسية نفسها بما فيها ذريتى هيروشيما وناجازاكى[٣] وبرأ نفسه من المسئولية وسل نفسه وبلده غالبا من الشبهات ببراعته فى ترتيب الحوادث:

بدأها فى الجزء الأول بنتائج الحرب الأولى تحت عنوان "أغلاط الظافرين"؛ أى بدأ القصة من وسطها ثم أخذت السوابق والخواتيم تنثال على سن قلمه. ولو أحسن لأرخ بغزو بريطانيا للبحار فى أثر الإسبان والبرتغال ولتبرأ من استعما ر بلاده للهند ومصر وغيرهما؛ فبذلك وغيره فتحت بريطانيا شهية جيرانها المقلدين لها فى الطمع والاستعمار والترذل أو فى التعلق بالأمجاد اليونانية الرومانية البائدة والتشبه بمتأخرى الخلفاء المتمسحين بالدين.

▲ومهما يكن حظ بريطانيا أو ألمانيا القديمتين أو غيرهما من المسئولية فالأحرى أن ننظر فى الأفكار الفلسفية والعلمية التى أدت إلى تنامى نزعة النفج القومى وإلى السياسة الاستعمارية باعتبارها الوجه التوسعى المترجم عن الفكر الفلسفى القومى الغربى نفسه؛ ولا فرق بينه فى الأسلوب البريطانى أو الفرنسى أو غيره إلا فى المنحى والمنهج وأما

---

[١] مذكرات ونستون تشرشل، ج١ص ٧٢، ٧٣

[٢] مذكرات ونستون تشرشل، ج١ص ١٦

[٣] قال: "وقد أدت غارات الألمان البشعة على المدن المكشوفة من الجو إلى غارات تزيد عنها عشرين ضعفا تشنها قوات الحلفاء الجوية التى يتزايد عددها يوما بعد يوم حتى بلغت ذروتها باستخدام القنبلة الذرية التى محت من الوجود مدينتى هيروشيما وناجازاكى\ مذكرات ونستون تشرشل، ج١ص ٢٣

الغاية فواحدة غاية استعمارية جشعة .